

هكذا لفظه - فرشوا لنا الشفاف<sup>(١)</sup> تحت حوافر دابتي وحكموني في أموالهم ونسائهم ولم يعصوني فيما أمرهم به ، وأنا لا أعرف صنعة ولا أحفظ قرآناً ولا نحواً ولا فقهاً ، فلو أسلمت لدرت في الأسواق أتكفف الناس ، فمن الذى يطيب نفساً بهذا؟! فقلت : هذا لا يكون ، وكيف تظن بالله أنك إذا آثرت رضاه على هواك يجزيك وبذلك ويجوحك؟! لو فرضنا أن ذلك أصابك فما ظفرت به من الحق والنجاة من النار ومن سخط الله وغضبه فيه أتم العوض عما فاتك ، فقال : حتى يأذن الله ، فقلت : القدر لا يحتج به ، ولو كان القدر حجة لكان حجة لليهود على تكذيب المسيح وحجة للمشركين على تكذيب الرسل ، ولا سيما أنتم تكذبون بالقدر فكيف تحتج به؟! فقال : دعنا الآن من هذا وأمسك .

الخامس : أن جوابك في نفس سؤالك فإنك اعترفت أن عبد الله بن سلام وذويه كانوا قليلين جداً وأصدادهم لا يحصون كثرة ، ومعلوم أن الغرض الداعى لموافقة الجمهور الذين لا يحصون كثرة وهم أولوا القوة والشوكة أقوى من الغرض الداعى لموافقة الأقلين المستضعفين . والله الموفق .

## فصل

### [ السؤال السادس ]

قال السائل : « تدخل علينا الرية من جهة عبد الله بن سلام وأصحابه ، وهو أنكم قد بنيت أكثر أساس شراعتكم في الحلال والحرام والأمر والنهي على أحاديث عوام من الصحابة الذين ليس لهم بحث في علم ولا دراسة ولا كتابة قبل مبعث نبيكم ، فابن سلام هو وأصحابه أولى أن يؤخذ بأحاديثهم ورواياتهم ، لأنهم كانوا أهل علم وبحث ودراسة وكتابة قبل مبعث نبيكم وبعده ، ولا تراكم تروون عنهم من الحلال والحرام والأمر والنهي إلا شيئاً يسيراً جداً ، وهو ضعيف عندكم ، اهـ .

والجواب من وجوه :

أحدها : أن هذا بهت من قائله ، فإننا لم نبن أساس شريعتنا في الحلال والحرام والأمر والنهي إلا على كتاب ربنا المجيد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، الذى أنزله على رسوله محمد ﷺ ، الذى تحدى به الأمم كلها على اختلاف علومها وأجناسها وطوائمها وهو في غاية الضعف ، وأعداؤه أطبقوا الأرض أن يعارضوه بمثله فيكونوا أولى بالحق منه ويظهر كذبه وصدقهم فعجزوا عن ذلك .

فتحدهم بأن يأتوا بمثل سورة مثله فعجزوا ، فتحدهم بأن يأتوا بسورة من مثله

(١) الشَّفَف : الخَرْف . أو مُكْسَرَه . واحدته : شَفَفَة .

فمعجزوا ، هذا وأعداؤه الأدنون إليه أفصح الخلق وهم أهل البلاغة والفصاحة واللسن<sup>(١)</sup> والنظم والنثر والخطب وأنواع الكلام ، فما منهم من فاه في معارضته بينت شفة ، وكانوا أحرص الناس على تكذيبه وأشدهم أذى له بالقول والفعل والتنفير عنه بكل طريق .

فما نقل عن أحد منهم سورة واحدة عارضه بها ؛ إلا مسيلمة الكذاب<sup>(٢)</sup> بمثل قوله : « يا ضفدع بنت ضفدعين ، نقي كم تنقين ، لا الشارب تمنعين ، ولا الماء تكدرين » ، ومثل : « والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجنناً ، فالخابزات خبزاً ، إهالة وسمناً »<sup>(٣)</sup> وأمثال هذه الألفاظ التي هي بألفاظ أهل الجنون والمعتوهين أشبه منها بألفاظ العقلاء .

فالمسلمون إنما بنوا أساس دينهم ومعالم حلالهم وحرامهم على الكتاب الذي لم ينزل من السماء كتاب أعظم منه ، فيه بيان كل شيء وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة وشفاء لما في الصدور ، به هدى الله رسوله وأتمه فهو أساس دينهم .

**الثاني : أن قولكم : « إن المسلمين بنوا أساس دينهم على رواية عوام من الصحابة » من أعظم البهت وأفحش الكذب ، فإنهم وإن كانوا أميين فمذ بعث الله فيهم رسوله زكاهم وعلمهم الكتاب والحكمة وفضلهم في العلم والعمل والهدى والمعارف الإلهية والعلوم النافعة المكملة للنفوس على جميع الأمم ، فلم تبق أمة من الأمم تدانهم في فضلهم وعلومهم وأعمالهم ومعارفهم .**

فلو قيس ما عند جميع الأمم من معرفة وعلم وهدى وبصيرة إلى ما عندهم لم يظهر له نسبة إليه بوجه ما ؛ وإن كان غيرهم من الأمم أعلم بالحساب والهندسة ، والكم المتصل والكم المنفصل ، والنبض والقارورة والبول والقسطة<sup>(٤)</sup> ، ووزن الأنهار ونقوش الحيطان ، ووضع الآلات العجيبة ، وصناعة الكيمياء ، وعلم الفلاحة ، وعلم الهيعة ، وتسيير الكواكب ، وعلم الموسيقى والألحان ، وغير ذلك من العلوم التي هي بين علم لا ينفع وبين ظنون كاذبة ، وبين علم نفعه في العاجلة وليس من زاد المعاد . فإن أردتم أن الصحابة كانوا عواماً في أصل العلوم فنعم إذا « وتلك شكاة ظاهرة عنك عارها » وإن أردتم أنهم كانوا عواماً في العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه ودينه وشرعه وتفاصيله واليوم الآخر وتفاصيله وتفصيل ما بعد الموت وعلم سعادة النفوس وشقاوتها وعلم صلاح القلوب وأمراضها فمن بهت نبيهم

(١) اللسن : اللغة . يقال : لكل قوم لسن .

(٢) انظر تفاصيل خروجه على النبي ﷺ وصفة مقتله في عهد الصديق . السيرة النبوية لابن هشام [٤٢٥/٤ - ٤٢٦ - ٤٤٣ - ٤٤٤] .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير [٤٨/٥ - ٥٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٣/٦ ، ٣٦٤/٦ - ٣٦٨] .

(٤) انظر البداية والنهاية [٣٦٧/٦ ، ٣٦٨] وإعجاز القرآن للباقلاني بهامش الإلتقان للسيوطي [٦/٢ - ٨] .

(٤) القسطة : المقدار في الماء وغيره - والميزان .

بما بهته به ووجد نبوته ورسالته التي هي للبصائر أظهر من الشمس للأبصار لم ينكر له أن يهت أصحابه ويحمد فضلهم ومعرفتهم ، وينكر ما خصهم الله به وميزهم على من قبلهم ومن هو كائن من بعدهم إلى يوم القيامة؟! وكيف يكونون عواماً في ذلك وهم أزكى الناس فطرة وأزكاهم نفوساً ، وهم يتلقونه غصاً طرياً ومحضاً لم يشب عن نبيهم ، وهم أحرص الناس عليه وأشوقهم إليه ، وخبر السماء يأتيهم على لسانه في ساعات الليل والنهار والحضر والسفر ، وكتابهم قد اشتمل على علوم الأولين والآخرين ، وعلم ما كان من المبدأ والمعاد ، وتخليق العالم وأحوال الأمم الماضية ، والأنبياء وسيرهم وأحوالهم مع أممهم ، ودرجاتهم ومنازلهم عند الله ، وعددهم ، وعدد المرسلين منهم ، وذكر كتبهم ، وأنواع العقوبات التي عذب الله بها أعداءهم ، وما أكرم به أتباعهم ، وذكر الملائكة وأصنافهم وأنواعهم وما وكلوا به واستعملوا فيه ، وذكر اليوم الآخر وتفاصيل أحواله ، وذكر الجنة وتفاصيل نعيمها والنار وتفاصيل عذابها ، وذكر البرزخ وتفاصيل أحوال الخلق فيه ، وذكر أشرط الساعة والإخبار بها مفصلاً بما لم يتضمنه كتاب غيره من حين قامت الدنيا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، كما أخبر به المسيح عنه من قوله في الإنجيل وقد بشرهم به فقال : « وكل شيء أعده الله تعالى لكم يخبركم به » وفي موضع آخر منه : « ويخبركم بالحوادث والغيوب » ، وفي موضع آخر : « ويعلمكم كل شيء » ، وفي موضع آخر منه : « يحيى لكم الأسرار » ، ويفسر لكم كل شيء ، أجيبكم بالأمثال وهو يجيبكم بالتأويل » ، وفي موضع آخر : « إن لي كلاماً كثيراً أريد أن أقوله لكم ولكنكم لا تستطيعون حمله ، لكن إذا جاء روح الحق ذلك يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بما يسمع ، ويخبركم بكل ما يأتي ، ويعرفكم جميع ما للآب »<sup>(١)</sup> .

فمن هذا علمه بشهادة المسيح وأصحابه يتلقون ذلك جميعه عنه وهم أزكى الخلق وأحفظهم وأحرصهم ، كيف تدانيم أمة من الأمم في هذه العلوم والمعارف؟! ولقد صلى رسول الله ﷺ يوماً صلاة الصبح ثم صعد المنبر فخطبهم حتى حضرت الظهر ، ثم نزل فصلى وصعد فخطبهم حتى حضرت العصر ، ثم نزل فصلى وخطبهم حتى حضرت المغرب ، فلم يدع شيئاً إلى قيام الساعة إلا أخبرهم به ، فكان أعلمهم أحفظهم .  
 وخطبهم مرة أخرى خطبة فذكر بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم ، وقال يهودى لسلمان : لقد علمكم نبيكم كل شيء حتى الخرافة ! قال :  
 أجل<sup>(٢)</sup> . فهذا اليهودى كان أعلم بنبينا من هذا السائل وطائفته !!

(١) كل هذه الأقوال سقت مع تحقيقها .

(٢) صحيح . مسلم في الطهارة . باب الاستطابة [ ٥٧ ، ٥٨ ] والخرافة : اسم لهمة الحدث ، وأما نفس الحدث فيحدث الناء وبالمد ، مع فتح الخاء وكسرها .

## الصحابة وفضلهم ، والعلماء ومنزلتهم

وكيف يدعى في أصحاب نبينا أنهم عوام وهذه العلوم النافعة المبثوثة في الأمة على كثرتها واتساعها وتفنن ضرورها إنما هي عنهم مأخوذة ومن كلامهم وفتاويهم مستنبطة ، وهذا عبد الله بن عباس كان من صبيانهم وفتيانهم وقد أطبق الأرض علماً وبلغت فتاويه نحواً من ثلاثين سفرأ ، وكان بجرأ لا ينزف لو نزل به أهل الأرض لأوسعهم علماً وكان إذا أخذ في الحلال والحرام والفرائض يقول القائل لا يحسن سواه فإذا أخذ في تفسير القرآن ومعانيه يقول السامع لا يحسن سواه ، فإذا أخذ في السنة والرواية عن النبي ﷺ يقول القائل لا يحسن سواه ، فإذا أخذ في القصص وأخبار الأمم وسير الماضين فكذلك ، فإذا أخذ في أنساب العرب وقبائلها وأصولها وفروعها فكذلك ، فإذا أخذ في الشعر والغريب فكذلك .

قال مجاهد : العلماء أصحاب محمد ﷺ ، وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ [ سبأ : ٦ ] ، قال : هم أصحاب محمد ﷺ ، لما حضر معاذاً الموت قيل له : أوصنا ، قال : اجلسوني ، فأجلسوه فقال : إن العلم والإيمان بمكانهما من اقتفاهما وجدما عند أربعة رهط : عند عويمر أبي الدرداء ، وعند سلمان الفارسي ، وعند عبد الله بن مسعود ، وعند عبد الله بن سلام ، فإن سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنه عاشر عشرة في الجنة » .

وقال أبو إسحاق السبيعي : قال عبد الله : علماء الأرض ثلاثة ؛ فرجل بالشام ، وآخر بالكوفة ، وآخر بالمدينة . فأما هذان فيسألان الذي بالمدينة ، والذي بالمدينة لايسألهما عن شيء . وقيل لعلي بن أبي طالب : حدثنا عن أصحاب رسول الله ﷺ ، قال : عن أيهم ؟ قالوا : عن عبد الله بن مسعود ، قال : قرأ القرآن وعلم السنة ثم انتهى وكفى بذلك ، قالوا : فحدثنا عن حذيفة ، قال : أعلم أصحاب محمد بالمتأقين ، قالوا : فأبو ذر ؟ قال : كنيف<sup>(١)</sup> ملء علماً عجن فيه ، قالوا : فعمار ؟ ، قال : مؤمن نسي إذا ذكرته ذكر خلط الله الإيمان بلحمه ودمه ليس للنار فيه نصيب ، قالوا : فأبو موسى ؟ قال : صبغ في العلم صبغة ، قالوا : فسلمان ؟ ، قال : علم العلم الأول والآخر ، بحر لا ينزح ، هو منا أهل البيت ، قالوا : فحدثنا عن نفسك يا أمير المؤمنين ؟ ، قال : إياها أردتم ، كنت إذا سئلت أعطيت ، وإذا سكت ابتديت .

وقال مسروق : شافهت أصحاب محمد ﷺ فوجدت علمهم ينتهي إلى ستة : إلى علي وعبد الله وعمر وزيد بن ثابت وأبي الدرداء وأبي بن كعب ، ثم شافهت الستة فوجدت علمهم ينتهي إلى علي وعبد الله :

(١) كنيف : حظيرة من خشب أو شجر تتخذ للإبل والغنم تقبها الريح والبرد .

وقال مسروق : جالست أصحاب محمد ﷺ وكانوا كإخاذا الإخاذا<sup>(١)</sup> يروى الراكب ، والإخاذا يروى الراكبين ، والإخاذا العشرة ، والإخاذا لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم ، وإن عبد الله من تلك الإخاذا .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال : « بينا أنا نائم أتيت بقدح لبن فشربت منه حتى أرى الرى يخرج من أظفارى ، ثم أعطيت فضل عمر ، فقالوا : فما أولت ذلك يا رسول الله ؟ قال : « العلم »<sup>(٢)</sup> .

وقال عبد الله : إني لأحسب أن عمر بن الخطاب قد ذهب بتسعة أعشار العلم .  
وقال عبد الله : لو أن علم عمر بن الخطاب وضع في كفة الميزان ووضع علم أهل الأرض في كفة لرجح علم عمر .

وقال حذيفة بن اليمان : كأن علم الناس مع علم عمر دس<sup>(٣)</sup> في حجر .  
وقال الشعبي : قضاة هذه الأمة أربعة عمر وعلى وزيد وأبو موسى .  
وقال قبيصة بن جابر<sup>(٤)</sup> : ما رأيت رجلاً قط أعلم بالله ولا أقرأ لكتاب الله ولا أفه في دين الله من عمر .

وقال علي : بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن وأنا حديث السن ليس لي علم بالقضاء ، فقلت : إنك ترسلني إلى قوم يكون فيهم الأحداث وليس لي علم بالقضاء ، قال : فضرب في صدري وقال : « إن الله سيهدى قلبك ويثبت لسانك » ، قال : فما شككت في قضاء بين اثنين بعده<sup>(٥)</sup> .

وفي الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال : كنت أرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط فمر بي رسول الله ﷺ وأبو بكر ، فقال لي : « يا غلام هل من لبن ؟ » ، فقلت : نعم ولكنني مؤتمن ، قال : « فهل من شاة لم ينزل عليها الفحل ؟ » ، قال : فأتيته بشاة فمسح ضرعها فنزل لبن فحلبه في إناء فشرب وسقى أبا بكر ، ثم قال للضرع : « اقلص » فقلص ، قال : ثم أتيته بعد هذا فقلت : يا رسول الله علمني من هذا القول ، فمسح رأسي ، وقال :

(١) إخاذا : مفرداها : الإخاذاة : وهو العذير الصغير .

(٢) صحيح . البخارى في العلم . باب فضل العلم [٢١٦/١] وفي مواضع أخرى . ومسلم في فضائل الصحابة . باب فضائل عمر [١٦] .

(٣) الدُّسَّة : لُغْبَةٌ لصبيان الأعراب .

(٤) قبيصة بن جابر بن وهب الأسدى ، أبو العلاء ، الكوفى . ثقة من الثانية ، محترم . مات سنة ٨٩٩ [تقريب ١٢٢/٢] .

(٥) صحيح . أبو داود في الأفضية . باب كيف القضاء [٣٥٨٢] وابن ماجه في الأحكام . باب ذكر القضاء [٢٣١٠] وأحمد في المسند [٨٨/١ ، ١٣٦ ، ١٥٠ ، ١٥٦] .

و يرحمك الله إنك عليم معلم (١) .

وقال عقبة بن عامر : ما رأى أحداً أعلم بما أنزل على محمد من عبد الله ، فقال أبو موسى : إن تقل ذلك فإنه كان يسمع حين لا نسمع ويدخل حين لا ندخل .  
وقال مسروق : قال عبد الله : ما أنزلت سورة إلا وأنا أعلم فيما أنزلت ، ولو أنى أعلم أن رجلاً أعلم بكتاب الله منى تبلغه الإبل والمطايا لأتيته .

وقال عبد الله بن بريدة في قوله عز وجل : ﴿ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴾ [محمد : ١٦] ، قال : هو عبد الله بن مسعود (٢) . وقيل لمسروق : كانت عائشة تحسن الفرائض ؟ قال : والله لقد رأيت الأكبر من أصحاب رسول الله ﷺ يسألونها عن الفرائض .

وقال أبو موسى : ما أشكل علينا أصحاب محمد ﷺ حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً . وقال شهر بن حوشب : كان أصحاب محمد ﷺ إذا تحدثوا وفيهم معاذ ابن جبل نظروا إليه هيبة له . وقال يحيى بن أبي طالب : أبو ذر وعاء مليء علماً ، ثم وكىء عليه فلم يخرج منه شيء حتى قبض . وقال مسروق : قدمت المدينة فوجدت زيد بن ثابت من الراسخين في العلم . ولما بلغ أبا الدرداء موت عبد الله بن مسعود قال : أما إنه لم يخلف بعده مثله .

وقال أبو الدرداء : إن من الناس من أوتي علماً ولم يؤت حليماً ، وشداد بن أوس ممن أوتي علماً وحليماً .

ولما مات زيد بن ثابت قام ابن عباس على قبره وقال : هكذا يذهب العلم .  
وضم رسول الله ﷺ ابن عباس وقال : « اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب » (٣) ،  
وقال محمد بن الحنفية (٤) لما مات ابن عباس : لقد مات رباني هذه الأمة . وقال عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة : ما رأيت أحداً أعلم بالسنة ولا أجلد رأياً ولا أثقب نظراً حين ينظر من ابن عباس .

وكان عمر بن الخطاب يقول له : قد طرأت علينا عضل (٥) أقضية أنت لها ولأمثالها ،

(١) صحيح . أحمد في المسند [٣٧٩/١ ، ٤٦٢] .

(٢) المراد من الآية الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين لا عبد الله وحده .

(٣) صحيح . البخاري في فضائل الصحابة . باب ذكر ابن عباس [١٢٦/٧] وابن ماجه في المقدمة . باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ [١٦٦] .

(٤) محمد بن علي بن أبي طالب الهاشمي ، أبو القاسم بن الحنفية ، المدني ، ثقة ، عالم ، من الثانية ، مات بعد الثمانين [تقريب ١٩٢/٢ ، تاريخ الثقات ١٤٨٧] .

(٥) عضل : داء عضال ، وأمر عضال أي شديد أعيا الأطباء وأمر معضل لا يهتدى لوجهه .

ثم يقول عبيد الله : وعمر عمر في جده وحسن نظره للمسلمين .  
 وقال عطاء بن أبي رباح : ما رأيت مجلساً قط أكرم من مجلس ابن عباس ، أكثر فقهاً  
 وأعظم جفنة ، إن أصحاب الفقه عنده ، وأصحاب القرآن عنده ، وأصحاب الشعر ،  
 يصدرهم كلهم في وادٍ واسع ، وكان عمر بن الخطاب يسأله مع الأكابر من أصحاب رسول  
 الله ﷺ ودعا له رسول الله ﷺ أن يزيد الله علماً وفقهاً .  
 وقال عبد الله بن مسعود : لو أن ابن عباس أدرك أستاذنا ما عشره منا رجل . أى ما بلغ  
 عشره .

وقال ابن عباس : ما سألتني أحد عن مسألة إلا عرفت أنه فقيه أو غير فقيه ، وقيل له :  
 أنى أصبت هذا العلم ؟ قال : بلسان سؤال ، وقلب عقول ، وكان يسمى البحر من كثرة  
 علمه . وقال طاوس<sup>(١)</sup> : أدركت نحو خمسين من أصحاب رسول الله ﷺ إذ ذكر لهم ابن  
 عباس شيئاً فخالقوه لم يزل بهم حتى يقرروهم . وقال الأعمش : كان ابن عباس إذا رأته  
 قلت : أجمل الناس ، فإذا تكلم قلت : أفصح الناس ، فإذا حدث قلت : أعلم الناس . وقال  
 مجاهد : كان ابن عباس إذا فسر الشيء رأيت عليه النور .

وقال ابن سيرين : كانوا يرون أن الرجل الواحد يعلم من العلم ما لا يعلمه الناس أجمعون .  
 قال ابن عون : فكأنه رأى أنكرت ذلك قال : فقال : أليس أبو بكر كان يعلم ما لا يعلم  
 الناس ، ثم كان عمر يعلم ما لا يعلم الناس؟! وقال عبد الله بن مسعود : لو وضع علم  
 أحياء العرب في كفة وعلم عمر في كفة لرجح بهم علم عمر ، قال الأعمش : فذكروا ذلك  
 لإبراهيم فقال : عبد الله إن كنا لنحسبه قد ذهب بتسعة أعشار العلم .  
 وقال سعيد بن المسيب : ما أعلم أحداً من الناس بعد رسول الله ﷺ أعلم من عمر  
 ابن الخطاب ، وقال الشعبي : قضاة الناس أربعة .. عمر وعلى وزيد بن ثابت وأبو موسى  
 الأشعري .

وكانت عائشة رضی الله عنها مقدمة في العلم بالفرائض والسنن والأحكام والحلال والحرام  
 والتفسير . قال عروة بن الزبير : ما جالست أحداً قط أعلم بقضاء ولا بمحدث الجماهلية  
 ولا أروى للشعر ولا أعلم بفريضة ولا طب من عائشة . وقال عطاء : كانت عائشة أعلم  
 الناس وأفقه الناس .

وقال البخارى في تاريخه : روى العلم عن أبى هريرة ثمانمائة رجل ما بين صاحب وتابع .  
 وقال عبد الله بن مسعود : إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد

(١) طاوس بن كيسان البجلي ، أبو عبد الرحمن ، الحميرى مولاهم ، الفارس ، يقال : اسمه ذكوان ، وطاوس لقب . ثقة  
 فقيه ، فاضل ، من الثالثة مات سنة ١٠٦ هـ ، وقيل : بعد ذلك [تقريب ٣٧٧/١]

فاصطفاه وبعثه برسالته ، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلوا وزراءه . وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾ [ التمل : ٥٩ ] ، قال : هم أصحاب محمد ﷺ .

وقال ابن مسعود : من كان منكم مستنأ فليستن بمن قد مات فإن الحى لا يؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد ، أبر هذه الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، قوم اختارهم الله لإقامة دينه وصحبة نبيه فاعرفوا لهم حقهم ، وتمسكوا بهديهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم .

وقد أثنى الله سبحانه عليهم بما لم يشته على أمة من الأمم سواهم فقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ أى عدولاً خياراً ﴿ .. لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [ البقرة : ١٤٣ ] . وقال تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [ آل عمران : ١١٠ ] . وقال : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ، تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ، سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ ، كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [ الفتح : ٢٩ ] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [ التوبة : ١١٩ ] ، وهم محمد وأصحابه .

وصح عنه ﷺ أنه قال : « أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل »<sup>(١)</sup> ، وقال تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [ التوبة : ١٠٠ ] .

وقال مالك عن نافع : كان ابن عباس وابن عمر يجلسان للناس عند قدوم الحاج وكنتم أجلس إلى هذا يوماً وإلى هذا يوماً ، فكان ابن عباس يجيب ويفتى في كل ما يسأل عنه وكان ابن عمر يرد أكثر مما يفتى .

قال مالك : وسمعت أن معاذ بن جبل يكون أمام العلماء برثوة ، يعنى يكون أمامهم يوم القيامة برمية حجر .

وقال مالك : أقام ابن عمر بعد النبي ﷺ ستين سنة يفتى الناس في الموسم وغير ذلك

(١) حسن . ابن ماجه في الزهد . باب صفة أمة محمد ﷺ [ ٤٢٨٨ ] وأحمد في المسند [ ٤٤٧/٤ . ٥/٥ ] .

ركان من أئمة الدين ، وقال عمر لجرير : يرحمك الله إن كنت لسيداً في الجاهلية فقيماً في الإسلام . وقال محمد بن المنكدر : ما قدم البصرة أحد أفضل من عمران بن حصين . وكان لجابر بن عبد الله حلقة في مسجد رسول الله ﷺ يؤخذ عنه العلم . والعلم إنما انتشر في الآفاق عن أصحاب رسول الله ﷺ فهم الذين فتحوا البلاد بالجهاد ، والقلوب بالعلم والقرآن ، فملأوا الدنيا خيراً وعلماً ، والناس اليوم في بقايا آثار علمهم . قال الشافعي في رسالته وقد ذكر الصحابة فعظمهم وأثنى عليهم ثم قال : « وهم فوقنا في كل علم واجتهاد وورع وعقل وأمر استدرك به علم ، وآراؤهم لنا أحمد وأولى بنا من آرائنا ، ومن أدركنا ممن نرضى أو حكى لنا عنه ببلدنا صرنا فيما لم نعلم فيه سنة<sup>(١)</sup> إلى قولهم إن اجتمعوا أو قول بعضهم إن تفرقوا ، وكذلك تقول ولم نخرج من أقوالهم كلهم » . وقال الشافعي : **وقد أثنى الله على الصحابة في التوراة والإنجيل والقرآن وسبق لهم على لسان نبيهم ﷺ من الفضل ما ليس لأحد بعدهم .**

وقال أبو حنيفة : « إذا جاء عن النبي ﷺ فعلى الرأس والعين ، وإذا جاء عن الصحابة نختار من قولهم ولم نخرج عنه » .

وقال ابن القاسم : « سمعت مالكا يقول : لما دخل أصحاب رسول الله ﷺ الشام نظر إليهم رجل من أهل الكتاب فقال : ما كان أصحاب عيسى ابن مريم الذين قطعوا بالمشاعر وصلبوا على الخشب بأشد اجتهاداً من هؤلاء » .

وقد شهد لهم الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى « بأنهم خير القرون على الإطلاق »<sup>(٢)</sup> كما شهد لهم ربه تبارك وتعالى بأنهم خير الأمم على الإطلاق .

وعلمائهم وتلاميذهم هم الذين ملأوا الأرض علماً ، فعلماء الإسلام كلهم تلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم وهلم جرا ، وهؤلاء الأئمة الأربعة الذين أطبق عليهم الأرض شرقاً وغرباً هم تلاميذ تلاميذهم ، وخيار ما عندهم ما كان عن الصحابة ، وخيار الفقه ما كان عنهم ، وأصح التفسير ما أخذ عنهم .

وأما كلامهم في باب معرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وقضائه وقدره ففي أعلى المراتب ، فمن وقف عليه وعرف ما قالته الأنبياء عرف أنه مشتق منه مترجم عنه ، وكل علم نافع في الأمة مستنبط من كلامهم ومأخوذ عنهم ، وهؤلاء تلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم قد أطبقت تصانيفهم وفتاويهم الأرض ، فهذا مالك جمعت فتاويه في عدة أسفار ، وكذلك أبو حنيفة ،

(١) في المخطوطة « صاروا فيما لم يعلموا فيه سنة » والأصوب ما أثبتناه .

(٢) روى أكثر من حديث صحيح في شهادة النبي للصحابة بأنهم خير القرون فقد قال ﷺ « خير الناس قرون ، ثم الدين بلوهم ، ثم الدين بلوهم .. » وقال : « وخير الناس قرون ، ثم الثاني ، ثم الثالث ، ثم هيء قوم لا خير فيهم » وقال أيضاً « خير الناس القرن الذي أنا فيه ، ثم الثاني ، ثم الثالث » صحيح الجامع للألباني [ ٣٢٨٨ ، ٣٢٩٣ ، ٣٢٩٥ ] .

وهذه تصانيف الشافعي تقارب المائة ، وهذا الإمام أحمد بلغت فتاويه وتأليفه نحو مائة سفر ، وفتاويه عندنا في نحو عشرين سِفرًا ، وغالب تصانيفه بل كلها عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة والتابعين ، وهذا علامتهم المتأخر « شيخ الإسلام ابن تيمية » جمع بعض أصحابه فتاواه في ثلاثين مجلداً ورأيتها في الديار المصرية ، وهذه تأليف أئمة الإسلام التي لا يحصيها إلا الله ، وكلهم من أولهم إلى آخرهم يقر للصحابة بالعلم والفضل ، ويعترف بأن علمه بالنسبة إلى علومهم كعلومهم بالنسبة إلى علم نبيهم .

### ﴿ كعب الأحبار وبعض الأخبار ﴾

وفي « الثقات » حدثنا قتيبة بن سعيد ، عن سعيد بن عبد الرحمن المعافري ، عن أبيه : أن كعباً رأى حبر اليهود يبكي ، فقال له : ما يبكيك ؟ قال : ذكرت بعض الأمر ، فقال كعب : أنشدك الله لئن أخبرتكم ما أبكاكم لتصدقني ؟ قال : نعم ، قال : أنشدك الله هل تجد في كتاب الله المنزل أن موسى نظر في التوراة فقال : رب إني أجد خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالكتاب الأول والكتاب الآخر ويقاتلون أهل الضلالة حتى يقاتلون الأعداء الدجال فاجعلهم أمتي ، قال : هم أمة أحمد يا موسى ؟ قال الحبر : نعم ، قال كعب : فأنشدك الله هل تجد في كتاب الله المنزل أن موسى نظر في التوراة فقال : يارب إني أجد أمة هم الحمادون رعاة الشمس المحكمون إذا أرادوا أمراً قالوا : نفعله إن شاء الله ، فاجعلهم أمتي ، قال : هم أمة أحمد يا موسى ؟ ، قال الحبر : نعم . فقال كعب : فأنشدك الله أتجد في كتاب الله المنزل أن موسى نظر في التوراة فقال : يارب إني أجد أمة إذا أشرف أحدهم على شرف كبر الله وإذا هبط حمد الله ؛ الصعيد طهورهم والأرض لهم مسجد حيثما كانوا يتطهرون من الجنابة ، طهورهم بالصعيد كطهورهم بالماء حيث لا يجدون الماء ، غراً محجلين من آثار الوضوء فاجعلهم أمتي ، قال : هم أمة أحمد يا موسى ؟ قال الحبر : نعم . قال كعب : فأنشدك الله أتجد في كتاب الله أن موسى نظر في التوراة فقال : يارب إني أجد أمة مرحومة ضعفاء أورثتهم الكتاب فاصطفيتهم لنفسك فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فلا أجد أحداً منهم إلا مرحوماً فاجعلهم أمتي ، قال : هم أمة أحمد يا موسى ؟ قال الحبر : نعم . قال كعب : أنشدك الله أتجد في كتاب الله أن موسى نظر في التوراة فقال : يارب إني أجد أمة مصاحفهم في صدورهم ، يصفون في صلاتهم كصفوف الملائكة ، أصواتهم في مساجدهم كدوى النحل ، لا يدخل النار منهم أحد إلا من برىء من الحسنات مثل ما برىء الحجر من ورق الشجر . قال موسى : فاجعلهم أمتي ، قال : هم أمة أحمد يا موسى ؟ قال الحبر : نعم .

فلما عجب موسى من الخير الذي أعطى الله محمداً وأمهته قال : ليتني من أصحاب محمد ،

فأوحى الله إليه ثلاث آيات يرضيه بهن : ﴿ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [ الأعراف : ١٤٤ ] الآية . ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْتَدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [ الأعراف : ١٥٩ ] ، ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَنْبِيَاءِ ﴾ [ الأعراف : ١٤٥ ] الآية ، قال : فرضى موسى كل الرضا<sup>(١)</sup> .

وهذه الفصول بعضها في التوراة التي بأيديهم وبعضها في نبوة إشعيا وبعضها في نبوة غيره .

وه التوراة أعم من التوراة المعينة ، وقد كان الله سبحانه كتب لموسى في ﴿ الْأَنْبِيَاءِ ﴾ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ فلما كسرهما رفع منها الكثير وبقي خير كثير ، فلا يقدح في هذا النقل جهل أكثر أهل الكتاب به فلا يزال في العلم الموروث عن الأنبياء شيء لا يعرفه إلا الآحاد من الناس أو الواحد ، وهذه الأمة على قرب عهدنا بنبيها ، في العلم الموروث عنه ، ما لا يعرفه إلا الأفراد القليلون جداً من أمته وسائر الناس منكر له وجاهل به .

وسمع كعب رجلاً يقول : رأيت في المنام كأن الناس جمعوا للحساب فدعى الأنبياء فجاء مع كل نبي أمته ورأيت لكل نبي نورين ولكل من اتبعه نوراً يمشى بين يديه ، فدعى محمد ﷺ فإذا لكل شعرة في رأسه ووجهه نور ، ولكل من اتبعه نوران يمشى بهما ، فقال كعب : من حدثك بهذا ؟ قال : رؤيا رأيتها في منامي ، قال : أنت رأيت هذا في منامك ؟ قال : نعم ، قال : والذي نفسى بيده إنها لصفة محمد وأمته وصفة الأنبياء وأمهم لكأنما قرأتها من كتاب الله .

وفي بعض الكتب القديمة أن عيسى ابن مريم صلوات الله وسلامه عليه قيل له : يا روح الله ! هل بعد هذه الأمة أمة ؟ قال : نعم ، قيل : وأية أمة ؟ قال : أمة أحمد ، قيل : يا روح الله ! وما أمة أحمد ؟ قال : علماء حكماء أبرار أتقياء ، كأنهم من الفقه أنبياء ، يرضون من الله باليسير من الرزق ، ويرضى الله منهم باليسير من العمل ، يدخلهم الجنة بشهادة أن لا إله إلا الله .

وقال كعب : علماء هذه الأمة كأنبياء بنى إسرائيل ، وفيه حديث مرفوع لا أعرف حاله<sup>(٢)</sup> .

ثم نقول : وما يدريكم معاشر المثلثة وعباد الصُّلبان وأمة اللعنة والغضب بالفقه والعلم ؟

(١) أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء عن كعب الأخبار [ ٣٨٤/٥ - ٣٨٦ ] وفي إسناده رشدين بن سعد أبو الحجاج المصري ، ضعيف وقال النسائي : متروك ، وقال ابن يونس : كان صالحاً في دينه ، فأدرسته غفلة الصالحين ، فخلط في الحديث ، من السابعة ، مات سنة ١٨٨ هـ ، وله ثمان وسبعون سنة [ تقريب ٢٥١/١ ، الضعفاء والتهرؤكهن ٢٢٠ ] .

(٢) حديث علماء أمتي كأنبياء بنى إسرائيل ، قال السيوطي : لا أصل له . ولا يعرف في كتاب معتبر . الدرر المنتثرة في

ومسمى هذا الاسم حيث تسليوبونه أصحاب محمد الذين هم وتلاميذهم كأنبيا بني إسرائيل ، وهل يميز بين العلماء والجهال ويعرف مقادير العلماء إلا من هو من جملتهم ومعدود في زمرتهم ؟

فأما طائفة شبه الله علماءهم بالخمير التي تحمل أسفاراً ، وطائفة علماءها يقولون في الله ما لا ترضاه أمة من الأمم فيمن تعظمه وتجله ، وتأخذ دينها عن كل كاذب ومفتر على الله وعلى أنبيائه ، فمثلها مثل عريان يحارب شاكي السلاح<sup>(١)</sup> ، ومن سقف بيته زجاج وهو يزاحم أصحاب القصور بالأحجار ، ولا يستكثر على من قال في الله ورسوله ما قال ، أن يقول في أعلم الخلق إنهم عوام .

فليهنّ أمة الغضب علم المشنا والجمارا المكون منهما التلمود<sup>(٢)</sup> وما فيهما من الكذب على الله وعلى كلمه موسى . وما يحدث لهم أحبارهم وعلماء السوء منهم كل وقت ، ولتتهم علوم دلتهم على أن الله ندم على خلق البشر حتى شق عليه ، وبكى على الطوفان حتى رمد وعادته الملائكة ، ودلتهم على أن يناجوا في صلاتهم بقولهم : « يا إلهنا انتبه من رقدتك كم تنام » . ينخونه حتى يتنخى لهم<sup>(٣)</sup> ويعيد دولتهم .

ولتبن أمة الضلال علومهم التي فارقوا بها جميع شرائع الأنبياء وخالفوا بها المسيح خلافاً تتحققه علماءهم في كل أمره كما سيمر بك .

وعولومهم التي قالوا بها في رب العالمين ما قالوا مما كادت السموات تنشق منه والأرض تنفطر والجبال تهتد لولا أن أمسكها الخليم الصبور .

وعولومهم التي دلتهم على التثليث ، وعبادة خشبة الصليب والصور المدهونة بالسيرقون والزنجفر ، ودلتهم على قول عالمهم « أفرايم » : أن اليد التي جبلت طينة آدم هي التي علقت على الصليبوت ، وأن الشبر الذي زرعت به السموات هو الذي سمر على الخشبة . وقول عالمهم المشهور « كيرلس »<sup>(٤)</sup> : « من لم يقل إن مريم والدة الله فهو خارج عن ولاية الله » .



(١) شاكي السلاح : تأم السلاح كامل الاستعداد .

(٢) في المخطوطة « علم المشنا والتلمود وما فيهما .. والأصح ما أثبتناه . لأن التلمود - كما سبق - مكون من المشنا والجمارا .

(٣) يقال : نخنخ فلاناً : زجره ونحاه .

(٤) في المخطوطة « عريقدوس » والصواب ما أثبتناه . وقد تصدى كيرلس لمقولة نسطور ، مما أدى إلى انعقاد مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١ م وسيأتى الحديث عنه تفصيلاً في المجمع النصرانية . [ انظر الحريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة ٤٥٧/١ - ٤٩٥ ] .